

غرام الطفولة

بقلم الاستاذ محمد السيد

حكى بعضهم فقال : كنت أخترق شارع فؤاد الأول عند قنطرة بولاق ، وكنت مشغولاً بزحمة الطريق ، فلما انتهيت إلى الجهة المقابلة ، سمعت كأن إنساناً يهتف باسمي ، فلم أحفل به وظللت ماشياً ، وبعد قليل وإذا بصبي يبيع الصحف قد تعلق بأطراف ثوبي ، ثم خاطبني قائلاً : كلم يا بيبك كلم ، (في الأوتوهيل) الواقعة هناك بجوار القنطرة . عدت لأرى هذا الذي يناديني ، وماذا يريد مني ؟ وفيما أحزر في نفسي من عساه يكون هذا الذي يطالبني في هذا المكان ، وفي هذا الوقت من الليل ، حتى أطلت من بالسيارة ، وقالت في لهجة الأمر : اركب ... اركب حالا من فضلك ، فان جندي المرور لم تعجبه هذه الوقفة وقد ضايقني كثيراً .

في لحظة الدهشة وآنة الارتباك رحت أفتح باب السيارة لآخذ مكاناً فيها كما يجلس الناس عادة ... ولشد ما أذهلني أن كانت يد صاحبها أسبق مني إلى قفل الباب ، وجذبتني في عنف إلى حيث تجلس هي في مكان السائق ، ثم أردفت قائلة : متى تظل هكذا سقيم الذوق ؟ تعلم يا أخى معاملة الناس ... ماشاء الله ... حضرك تركب السيارة وأنا سائقة عندك !! طيب العفو ... وأستغفرك يا آنسة ، أنا أخطأت فأرجوك المغفرة . وأخذت مكاناً بجوارها ، وتحرك (الموتور) واندفعت السيارة كأنها الريح تنهب الأرض نهباً .

قطعنا جزيرة الزمالك وعبرنا قنطرة الانجاز ، وسرنا صوب الجزيرة في الشارع العام ، ونفست صاحبتني عن السيارة وأخذتها بالرفق ، واضطجعت بجاني وراحت تلعب في (الدر كسيون) بيد ... وبالأخرى طوقتني ... ثم أخذت تناجي الغرام الماضي ، وتذكر الحب القديم والايام السوالف ، بصوت خشنق ونغمات ناعمة ، في نبرات متهدجة ، كأنها حشرة الميت ، أو أنين الطفل المريض ، وإطالما كدنا نصطدم بالغادين والرائحين ، وكما كاد يدهشنا الترام ، أو تدوسنا عربات (اللورى) وصاحبتني مشغولة بما هي فيه من النجوى ، فلما وصلنا إلى الجزيرة توصلت إليها . أن كفى عن السير حتى لا تكون فاجعة ، ويكون أحدنا أو كلانا من ضحاياها ... ثم انتهينا إلى النيل قبالة الجزيرة فترجلنا ، ثم جلسنا على شاطئ البحر

فوق صخور الرصيف الضخمة ، ومن داخل السور الحديدى .
 وكانت عزيزة قد أشجأها منظر البحر ، وأخذها سحر السماء الصافية ، ففرقت في
 تأملات ، معتمدة رأسها الصغير على كتفى . ثم كانت تعيد النظر إلى البحر ، وتمعن التأمل
 فيه أنا ، وفي السماء آونة ... وفي النهاية صوبت عينها إلى البحر وأدامت النظر إليه ، وكأنها
 في شبه إغماء ، أو أخذتها من النوم سنة . وما أن أحسست قطرات فاترة تتساقط في نعومة
 ورفق فوق عنقي حتى أدركت أن صاحبتى تبكى وأنها محروقة ، فتجركت وهزتها
 فانتفضت صاحبة ساخطة قائلة : حتى إغماءة في حلم أو شبه حلم تصن بها على ؟ يا لله ما أقساك
 يا ظالمى ! وما نعى الحياة السعيدة التى يحياها الناس بل الحائلة والدهماء منهم ... فكم وددت
 لو تنقطع بي أسباب الدنيا كما انقطعت عن أسباب السعادة فيها . فبالله خبرنى أيها النمر فبم
 العيش في هذه الدنيا ؟ بل في هذا السجن المظلم ، ثم إلى متى تبقى هذه الروح محبوسة في
 هذا القفص ؟ وأنت أيها البحر أليس في جوفك مئوى لمن اكتوى بنار الهجر وشواه
 لبيب العذاب ؟

آه تكلم أيها البحر ونبشنى أليست عندك رقدة مريحة ، لهذا الذى أضنته صجرا
 القطيعة ... وأنهكته فيافي الآمال ... وفي النهاية رضى من الغنيمة بالاياب ؟ آه يا القسوة
 القدر ، ويا الظلم الزمان ...

ثم اعتدلت في جلستها ، وصوبت نظرها في ، وأشارت بيدها الصغيرة مهددة : أنت الزمان
 وأنت الأيام ... ولك أعيش ، ولأجلك ومنك وفيك أحيأ ... ومن أجلك أموت أيضاً .
 أتذكر وأنا طفلة حينما كنت تأتى بيتنا لتزور أخى الكبير ، وكنت ترانى ألعب في فناء
 الدار فتداعبنى ؟ أتذكر حينما كنت أترىض معك — أنا وأخى — وكنت تحببني بقطع
 الحلوى (والشيكولاته) وكنت دائماً تسأل عنى ؟؟ أظنك نسيت هذا ... فاجبتها أن لا .
 قالت : أتذكر حينما كنت تنفحنى أقلام الرصاص الملونة ، والكراسات وأدوات الكتابة

ثم حينما كنت تذاكرلى دروسى كلما تقدمت للامتحان ؟

لقد كنت أشعر نحوك في تلك الأيام بعاطفة ... واعلمها عاطفة احترام ، كنت أحسها
 لوالدى وإخوتى ، وكنت أنت مثلهم سواء بسواء . فلما تقدمت في السن ، تحوات هذه
 العاطفة إلى ظاهرة أخرى ... نعم لقد تحولات إلى فضول في السؤال عنك ، ثم تبادت ثم طغت ،
 وانقلبت شيئاً آخر هو شوق لملاقاتك ، وراحة إلى سماع حديثك ، ثم لقد نمت هذه العاطفة
 وهى أبداً في نماء وفي اضطرام ... حتى لقد غلبتنى على أمرى واعترفت لك بالحقيقة :::
 ولكنك كنت أبداً قاسياً ، فسخرت منى ، واعتبرتني طفلة نزقة طائشة ، ثم أعرأتني صمتك ،

ومنحتني سكوتك ... آ، يا أبا الهول ! ماذا تخفي لي ؟ ... تكلم ماذا لي عندك ؟ ... فكم أنت قاس ! وكم أوجرت في حقى !! واطلما حاولت أن أنساك أو أسلوك فما تركت بابا إلا طرقتة، ولما لم أفلح دخلت الكلية ، وقلت في نفسي عساني بالدرس والتحصيل أنساك ... شعلت نيمى بالعلم ، وكنت أبدأ متفوقة ، أستوعب دروسى ، بل التهمها التهاماً ، وما كان ذلك والله إلا من أجلك وبسبب حبك ... تأمل ! فأنى كنت أضح نصب عيني أنى لن أنالك إلا بالعلم ولن أحظى بقربك إلا (بالشهادة) أحرزها ... فيا للخجافة !! ويا للسخرية !! ويا للغباء !! بماذا أعترف ؟ وماذا أنكرك ؟

لقد كانت حياتي كلها لك ومن أجلك ! كانت تهزني العاطفة هزاً ، بل تحرق فؤادى بالنار حرقاً ... ولم يكن ثمة دواء ، إلا أن أتناول القرطاس والقلم ، وأكتب لك شاكية باكية ، نعم أكتب لك بحبات دموعي ، وقطرات دمي ، فاذا فرغت من الكتابة ، أحس كأننى قد أشبعت عاطفتي ، ثم أتمثل كأننى وضعت الكتاب في صندوق البريد ، ثم أمزقه . سادنا الصمت وعادت دموعها تساقط ، ولكن في غزارة وكثرة ، فتناولت منديل أمسح بيدي دموعها ، وأربت بالأخرى على كتفيها وخديها ، وأتلطف لها حتى كفت عن البكاء ، ثم نظرت إلى نظرة معجبة ، وقالت : ولكن قل لي ... ألا تهوانى ؟ كيف لا ؟ إنى أهواك ...

أنت تكذب ، لأنك لم تبادلني الحب . ثم إنك تزوجت . لا .. إنى لا أكذب . أنا أحبك ، ولم أتزوج لأنك تعرفين السبب ، فقيم المغالطة يا هذه ؟ أية مغالطة يا خبيث ؟ إن التى وهبتك روحها طفلة وشابة ، ترى في إغضابك بعدم النزول عند رأيك بل عند أمرك جنابة كبرى .

ألا تذكرين ما كان يدور بيننا من حديث ؟ وما كنت أتوجه إليك به من النقد ؟ وأنت لاتصغين إلى تقدي ، لقد فهمت من هذا أنك لاتهتمين بي ، أو بالأحرى أنك لاتريدننى . قالت : إنى كنت أفهم هذا الذى تزعم ، على أنك شغوف بإساءتى . وإلى هذا وحده أحيله . على أنى أعترف لك أنى كم لاقيت في هذا من مكروه وعنت .

قلت : كنت أعيب فيك سفورك وحبك للظهور غير محجبة ، والله خبرينى - ولا يغضبك منى هذا - فانا الآن لا أشعربك ، ولا أحفل بوجودك . فنظرت الى شزرا ثم قالت : كم قلت لك أن تكف عن هذه اللهجة بل هذه القسوة .

قلت لا لست إلى إيلامك أقصد ، ولكننى لا أعرف أأنسة أنت أم ولد ؟

فإذا لباسك ، وهذا شعرك ، وهذا مظهرك جميعاً ، ألا يتأدى أنك فتى لافتاة ؟ ؟ ساحي
يا عزيزتى فأنا لا أحب (ال . .)

فاستلقت ضاحكة حتى كادت تقع فى لجة البحر لولا أن عصمتها بكتبايدى ثم قالت: الآن
تدفعيت ، ولكن لماذا لم تصرح بهذا من زمان ؟ إننى أرتدى هذا اللباس وأعتقد أنه خير
ما يلبس فأنت لا ترى شيئاً من جسمى بادية ، ثم أنى لا أترين كغيرى من لدائى وبعد
فالأمر سهل ، وأنا أستطيع من الغد ، أن أتجلبب إذا كان فى هذا مرضاك ، ولكن
أليس من الحاقلة المطلوبة ، أن يكون هذا الذى تشير إليه سبباً فى القطيعة بيننا ؟

وأعترف لك يا عزيزى ، أنى أرى (اللباس) مسألة ثانوية ، فالإنسان يستطيع أن يلبس
ما شاء وأن يظهر أمام الناس كما يحب ويهوى ، ولا ضير عليه . ثم ماشان المظاهر إذا كانت القلوب
طاهرة ، والنفوس قوية ؟ قلت : لا تغالطى فلباس الناس دليل على ذوقهم ، وآية على شعورهم
وإحساسهم ، ثم هو مسألة وطنية أيضاً . ألا تعتقدين أن الشعب الذى يغير (زيّه) مقلداً شعباً آخر
قد يندمج بمرور الزمن فى هذا الذى كان أمامه المثل الأعلى ؟ على أن المصيبة قد لا تدف عند هذا
الحد ، فقد يطمع شعب بأمره ، ويكون ذلك نتيجة لازمة للتقليد الأعمى ثم من ناحية أخرى فإن
للتقاليد الموروثة عن الآباء والاجداد احترامها . ثم ماذا أقول لك . أليست الثورة نوعاً من الجنون ؟
قلت : ألا تؤمننى غضبك إذا أفضيت إليك برأى ؟

قلت : كيف أغضب ؟ أليست المسألة هى إحقاق الحق ؟
قلت : إذن فكل هذا الذى يحفزك انت وغيرك من الرجال أصله شيء واحد هو
أنكم معشر الرجال تخشون من المرأة مزاحمتها وتنفسون عليها أن تتساوى معكم فى العلم والعرفه
فتضيق الفوارق وتندك الحواجز ، ويتساوى السادة بالعبيد .

قلت : من السادة ؟ ومن العبيد ؟ قالت أنت تحزن وقد استأمتك . . . قلت . ليس تمة
فارق بين المرأة وبين الرجل يا (عزيزة) ولست أحرن اشيء غير أن المرأة لا تعرف قيمتها ،
ولا تعرف وظيفتها ، التى حدتها لها الطبيعة . أليست تقول الطبيعة إن المرأة أم ؟ ثم ما بال
المرأة تستصغر وظيفتها وهى جماع كل شيء ؟ أليست وظيفة الرجل ثانوية ؟ أعتقد أن
الرجل أداة تستخدمها المرأة فى حاجاتها وأغراضها ، التى منها المحافظة على بقاء النوع الانسانى .
وبعد فلا نوتة هى من الدنيا كل شيء . وإن ما فى المرأة من سحر وجاذبية ، وما إلى ذلك
إنما مصدره أنها أنثى ليس غير والمرأة المترجلة تعاند الطبيعة ، وهى حقيقة بأن يرثى لها ،
ذاك أن هذه الحمقاء لا ترضى بما وهبتها القدرة الإلهية من عظمة فى غير عنف ، وابن فى غير ضعف .
وتروح تطالب غير ما خلقت له فلا تصل إلى ما تريد ، ولا تقدر أن تعود إلى ما كانت عليه .

قالت : كيف تصف المرأة بغير الضعف وأنت تطالب إليها أن تكون للرجل رقا ؟
قلت : إنني لأطلب الى المرأة أن تكون رقا وهي السيدة في بيتها . أما إذا كنت تظنين أن قيام المرأة
بالواجب عليها يجعلها (رقا) أَوْ ضعيفة ، فأني أرجو أن تفهمي أن في هذا الضعف الذي
ترعمين سر عظمة المرأة وسر تحكها في الرجل . أليس يكفي المرأة ، أن يكون الرجل رهن
إشارتها تستخدمه في أغراضها وحاجاتها ؟ أليس في هذا كل العظمة ؟

ثم لقد زمت شفيتها الرقيقتين الحمراءين ، ثم قالت دعني ، فأنت تتفلسف ... ثم أردفت أليس حي
لك هو نهاية ما يمكن أن يكون في طبيعة المرأة من علام الأوثنة ؟ وعرفان بالوظيفة التي ترعم ؟
قلت : أفهم هذا ، وأؤكد لك أن الرجل لا يجب في المرأة إلا أنها أنثى .
قالت : الآن أنت تحبني ، أنت تهواني ... أليس كذلك ؟ نعم أحبك وأهواك .
هل أنت متأكد ؟ متأكد جداً .

إذن انتهينا ، ودعنا من هذا كله ، ولتعلم أني طوع بئانك ، وأنتك تستطيع أن تخلق مني
أي امرأة تشاء ، فأنا لك حبيبة ، أو صديقة إذا شئت ...

وساد سكون وأشعلت سيجارة ، ولصديقتي أخرى ... فأخذت تنفث الدخان في
الهواء ، ثم تضاحكت وقالت : ألا تعرف شبيهاً للسيجارة ؟ فسكت .

قالت : أنا أعرف لهذه السيجارة شبيهاً ، هو أنا ، فكلانا بالنار يحترق ، أما أنا فبنار
الحب ، وأما هي فبنار اللذة ... وكلانا في سبيل الغير يضطرم . أليس كذلك ؟
فأجبتها أن نعم .

سادنا صمت وسكون — ثم فتحت حقيبة يدها ، وأخرجت قطعاً فضية ، وأخذت
تلقمها في البحر واحدة بعد أخرى ... وراحت ترعم أنها لعبة فيها كثير من اللذة ،
وفيه دعاية ... وفيها معنى آخر هو عربون اعترافي لها بالحب ، ثم مالت وهمست في
أذني : إنني غير مصدقة ، أنت كنت تمزح حين قلت إنك تحبني .

لا ، لا ، لست أمزح إنني جاد ، قالت : إذن أنت لي . قلت : هو ماتقولين .
ولماذا إذن تزوجت من غيري ؟

أنا يا (عزيزة) لم أتزوج ، وحينما كنت أذكر لك أني تزوجت إنما كنت أداعبك .
تداعبني ؟!! كيف تداعبني بهذا !! ؟ أني الجناية ؟ أني الموت دعاية !!!

ثم أطرقت ... وبعد قليل قالت ولأفرض حتى إنك متزوج ، ألسنت تحبني أنا ؟
قلت من كل قلبي أحبك .. قالت حسبي هذا ...

نعم أحبك (يا عزيزة) ونحن من الآن حبيبان ... لا ، لا ... بل ... زوجان ...
محمد السيد